

## سفارة القاضي الباقلاني الى ملك الروم

د . صلاح الدين المنجد

كان ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني من كبار علماء الاسلام . كان متكلمًا على مذهب الأشعري ، من أهل البصرة ، ثم سكن بغداد . وكان ثقة ، بلغ الذورة في علم الكلام . وصفه الخطيب البغدادي فقال : « أما علم الكلام فكان أعرف الناس به ، وأحسنهم خاطرا ، وأجودهم لسانا ، وأوضحهم بيانا ، واصحهم عبارة - وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم » (١) وذكر عن ابي بكر الخوارزمي قوله : « كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي ابي بكر ، فان صدره يحوى علمه وعلم الناس » (٢) . ولد الباقلاني سنة ٣٣٨ هـ . وشدا العلم ونبغ فيه ، واشتهر اسمه وذاع صيته . وترك تواليف كثيرة جيدة .

كان آل بويه لهم الملك والحكم في بلاد فارس وكرمان وخراسان وغيرها . وكانت قاعدة ملكهم شيراز . وكان احد ملوكهم عضد الدولة ، محبًا للعلوم ، وصف فقيل عنه . « له وجه فيه الف عين ، وفم فيه الف لسان ، وصدر فيه الف قلب » (٣) .

وكان عضد الدولة شيعيا معتزليا ، يحب أن يتناظر العلماء في مجلسه . فأراد يوما أن يستدعى من علماء السنة من يناظر علماء

مجلسه من المعتزلة . فأخبر أن بالبصرة رجلين يجدران للمناظرة : شيخ وشاب . اما الشيخ فيعرف « بابن المجاهد » ، وأما الشاب فيعرف « بابن الباقلاني » . فأمر باحضارهما . فاعتذر ابن المجاهد ، ولبى الدعوة ابن الباقلاني . فسافر الى شيراز ، وناظر العلماء بحضرة عضد الدولة فى مجالس عدة ، فأعجب به واجله « (٤) .  
ثم بلغ من تقديره اياه أن قلده القضاء . وقد حفظ لنا السكونى نص كتاب التقليد . وهو :

« هذا كتاب تقليد القضاء للقاضى قاضى القضاة الامام الاوحد امام المسلمين ، سيف السنة ولسان الأمة ، وحبر الملة ، عماد الدين ، قانع الملحدين ، عالم أمير المؤمنين ابى بكر محمد بن الطيب البصرى الربعى الأشعرى : اقليم فارس ، وكرمان ، وأرض شيراز وما والاها ، وخراسان وأعمالها ، وأهواز وكورها ، وجزائر كلها ، وأرض الموصل باجمعها ، وديار بكر ومدنها ، أن تكون فى حكمه ، وتحت أمره ونهيه ، مما يتعلق بأحكام الاسلام والحسبة والخطابة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يتعلق بجميع مصالح المسلمين » (٥) .

ونرجح أن توليته القضاء كان بعد مجيى عضد الدولة الى بغداد واستقرار أمره فيها سنة ٣٦٧ هـ ، أيام الخليفة الطائع (٦) . لأن نص التقليد يذكر أن الباقلانى « عالم أمير المؤمنين » .  
وفى سنة ٣٧١ هـ ، على ما يذكر ابن الاثير ، اختاره عضد الدولة للسفارة الى ملك الروم . فيكون الباقلانى يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، لأنه ولد ، كما ذكرنا ، سنة ٣٣٨ هـ .  
وقد كان امبراطور الروم فى ايامه باسيلوس الثانى ، الذى

تولّى الحكم سنة ٩٧٦ ميلادية ، وبقي الى سنة ١٠٢٥ م ، أى من سنة ٣٦٦ هجرية الى سنة ٤١٦ هـ (٧) . فتجهز ابن الباقلانى - وسافر .

ماذا كان الهدف من هذه السفارة ؟

يذكر ابن الأثير ان ابا الطيب أرسل الى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه ، فى سنة ٣٧١ هـ (٨) . ولم يذكر موضوع هذه الرسالة .

ولكن يبدو أن سفارته كانت تتعلق بالصلات غير الحسنة التى كانت بين بغداد وبيزنطية ، وخاصة بقضية القائد البيزنطى « برداس سقليروس » BARDASSKLEROS الذى هزمه الا امبراطور البيزنطى «جان الشمشقيق » ففرّ الى بغداد سنة ٣٦٩ هـ ( ٩٧٩ م ) ، وطلب العون من الخليفة العباسى . فأبقاه الخليفة عنده . وقد أراد عضد الدولة أن يفاوض الا امبراطور لاعادته ، مقابل اعادة ما أخذته بزنطية من البلاد الاسلامية فى حروبها (٩) .

كيف أدى الباقلانى سفارته ؟

لقد حفظ لنا السكونى ، والخطيب البغدادى ، والحافظ ابن عساكر ، وابن الأثير ، والمقرئ اخبار هذه السفارة .

فنقل الأول . أى السكونى . عن الازدى (١٠) أن القاضى ذكر له أنه سار بالرسالة الى قسطنطينية . فلما وصلوا اليها أمر صاحبها ( أى الا امبراطور البيزنطى ) بانزالهم وادخالهم عليه ، على رسومهم فى ادخال الرسل . وهى أن لا يدخل احد على الملك بعمامة كبيرة ، ولا طيلسان ولا خف .

قال القاضى : فقلت أنا رجل من أهل العلم . و ( محلى ) غير محل العامة الذين لا يبالون وان فعلت مايقولون ( أى ما يطلب الروم )

عَبرني المسلمون ، وطعنوا على في ديني ، وسقطت من اعينهم  
فان أراد مني الدخول ، دخلت كما ادخل على الخليفة ، وعلى  
الملك الذي هو ملك الاسلام . وان كره فيقرأ كتابنا ويردّ الجواب ،  
ويردّنا الى صاحبنا . ولا حاجة لنا في اللقاء . .

فقال الا مبراطور : يؤذن له ، ويدخل كيف شاء (١١) .

فيكيف دخل ؟

يقول الخطيب البغدادي : فلما ورد مدينته عرّف الملك خبره .  
ويبين له محله من العلم وموضعه . فأفكر الملك في امره ، وعلم انه  
لايكفّر (١٢) له اذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل  
الأرض بين يدي الملوک . ثم نتجت له الفكرة ان يضع سريره  
الذي يجلس عليه ورآء باب لطيف ، لايمكن لاحد أن يدخل منه الا  
راكعا ، ليدخل القاضي منه على تلك الحال ، فيكون عوضا من  
تكفيره بين يديه فلما وضع السرير في ذلك الموضع امر بادخال  
القاضي من الباب .

فسار القاضي حتى وصل الى المكان . فلما رآه تفكر فيه ثم  
فطن بالقصة ، فأدار ظهره ، وحنا رأسه راکعا ، ودخل من الباب  
وهو يمشى الى خلفه ، وقد استقبل الملك بدبره ، حتى صار بين يديه ،  
ثم رفع رأسه ، ونصب ظهره ، وأدار وجهه حينئذ الى الملك (١٣) .

وأضاف الحافظ ابن عساكر . الذي روى الخبر أيضا . : فعجب

الملك من فطنته ووقعت هيئته في نفسه (١٤) .

ولخص ابن الأثير الخبر بالفاظ مختصرة فقال : فلما وصل الى  
الملك قيل له : ليقبل الأرض بين يديه . فلم يفعل . فقيل :  
لاسبيل الى الدخول الا مع تقبيل الأرض . فأصرّ على الامتناع .

فعمل الملك بابا صغيرا يدخل منه القاضى منحنيا ليوهم الحاضرين انه قبل الأرض . فلما رأى القاضى الباب علم ذلك فاستدبره ودخل منه . فلما جازه استقبل الملك وهو قائم . فعظم محله عندهم (١٥) ولنعد الآن الى رواية الازدى عن الباقلانى :

قال القاضى : « فدخلت وعلى الطيلسان والعمامة ، وفى رجلى الخفان وقعدت فوق السرير على كرسى عظيم . وأريت الرسالة . فقرأ الكتاب وكان فيها :

« وانى قد بعثت اليك لسان اهل الأرض تعظيما لك وتكرمة » .

فقال لى : ما معنى هذا الكلام ؟

فقلت : « انى رجل اتكلم على حدوث العالم ، واثبات محدثه ، وصفاته الواجبة له ، والمستحيلة عليه ، والجائزة فى احكامه وأتكلم على الوجدانية ، وأردّ على البراهمة والمنانية والمجوس واليهود والنصارى . وأبين صحة ما أدعيه من ناحية العقل ، وما يتعلق به من السمع ، والتوقيف ، وأبين ذلك كله بالبرهان اللائح ، وارد على الاثنيين والسبعين فرقة ، وانصر حقى .

فقال لى : يا مسلم ، اقعّد عندى واقاسمك فى مملكتى . قلت : كنت افعل ذلك ، غير انى محجور علىّ من جهة شرعى « (١٧) .

★ ★ ★ ★

وقد جرت للقاضى مع ملك الروم وحاشيته محادثات ، وسئل عن أسئلة محرّجة تتعلق بالاسلام خاصة ، فرد عليهم وأفحمهم .

(١) فمن ذلك ان ملك الروم أراد الاستهزاء بقصة انشقاق

القمر ، وهو آية للرسول صلى الله عليه وسلم فقال له :

هل كانت بينكم وبين القمر صداقة أو معرفة ؟ كيف رأيتموه

انشق ، ولم يره غيركم ؟ وقد علمتم انه فى السماء غير مختص بكم -  
فأجابه القاضى : وهل كانت بينكم وبين المائدة صداقة أو معرفة ،  
واليهود حاضرة تحلف انها لم تكن ؟ فما كان جوابكم عن هذه ، فهو  
جوابنا عن القمر .

فدعا ملك الروم له فلسفيا قد لبس الشعر حتى صار كالخنزير ،  
ليكلم القاضى . فقال له القاضى : ألسنت تزعمن أن الأرضى كريمة ؟  
فقال : نعم .

قال له : اذا كنت لاتنكر أن يرى فى هذا الاقليم ما لا يرى فى اقليم  
آخر ، كالكسوف يرى فى موضع دون موضع . وكواكب السماء ترى فى  
موضع دون غيره ، فلا تنكر انشقاق القمر فى اقليم دون غيره .  
فأقرله الفلسفى بذلك .

فقال له أصحاب الروم : دعوناك لتردّ عليه ، لا لتردّ علينا وتنصره .

فقال لهم : يجب أن ينصر الانسان الحق (٧) .

(٢) ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن عساكر قال :

وقيل انه دخل الى الملك يوما . فرأى عنده بعض مطارنته ورهبانيته .  
فقال له مستهزئا : كيف أنت ؟ وكيف الأهل والولد ؟ فتعجب الرومى منه  
وقال له : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة انك لسان الأمة ،  
ومتقدم على علماء الملة . اننا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد .

فقال القاضى ابو بكر : انتم لاتنزهون الله سبحانه وتعالى عن  
الأهل والولد ، وتنزهون هؤلاء - هؤلاء عندكم أقدس وأجلّ وأعلى من  
الله سبحانه وتعالى ؟ فوقعت هيبتة فى نفس الملك (١٨) .

(٣) وذكر المقرئ من اخبار هذه السفارة أن ملك الروم قال

للقاضى ماتقول فى المسيح ؟

- قال : روح الله وكلمته وعبدته .  
 قال : تقولون المسيح عبد ؟  
 قال : بذلك ندين .  
 قال : ولا تقولون ابن الله ؟  
 قال القاضى : ما اتخذ الله من ولد .  
 قال الملك : العبد يخلق ويحيى ويبرىء ؟  
 قال : ما فعل المسيح ذلك قط .  
 قال الملك : هذا مشهور فى الخلق .  
 قال : لا ، ما قال احد من اهل المعرفة أن الانبياء  
 يفعلون المعجزات ، لكن الله تعالى يفعلها على  
 أيديهم ، تصديقا لهم .

قال الملك : ان ذلك فى كتابكم .

قال القاضى : فى كتابنا ان ذلك كله باذن الله تعالى . ولو جاز ان يكون  
 ذلك فعل المسيح ، لجاز ان يقال ان موسى قلب العصاء ،  
 واخرج يده بيضاء ، وخلق البحر (١٩) .

(٣) ومما ذكره المقرئ :

أن القاضى الباقلانى سأل أحد القسيسين : لماذا اتحد اللاهوت

بالناسوت ؟ ( أى فى عيسى عليه السلام ) .

فقال : أراد ان ينجى الناس من الهلاك .

فقال القاضى : فهل درى انه يقتل ويصلب أو لا ؟ فان لم يدر لم يجز

أن يكون الاها ولا ابنا . وان درى فالحكمة تمنع من

التعرض لمثل ما قلتم انه جرى (٢٠) .

(٥) وذكر ابن كثير فى خبر وفاة الباقلانى قال :

ويقال ان الملك احضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل ، ليستفز عقله بها . فلما سمعها الباقلانى خاف على نفسه ان يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك ، فجعل لا يالو جهدا ان جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير . فاشتغل بالألم عن الطرب ، ولم يظهر عليه شع من النقص والخيفة . فعجب الملك من ذلك . ثم ان الملك استكشف الأمر ، فاذا هو قد جرح نفسه بما اشغله عن الطرب . فتحقق الملك وفور همته وعلو عزمته فان هذه الآلة لا يسمعها احد الا طرب شاء أم أبى . (٢١)

(٦) وقال : وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال :

ما فعلت زوجة نبيكم ؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الافك ؟

فقال الباقلانى مجيبا له على البديهة :

هما امرأتان ذكرتا بسوء مريم وعائشة . فبرا هما الله عزوجل . وكانت عائشة ذات زوج ، ولم تأت بولد ، وابت مريم بولد ولم يكن لها زوج . يعنى ان عائشة اولى بالبراءة من مريم . ، وكلاهما برئية مما قيل فيها . فان تطرق فى الذهن الفاسد احتمال الى هذه فهو اى تلك أسرع . وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء ، بوحي الله عزوجل . (٢٢)

★ ★ ★ ★ ★

هذه بعض الاخبار التى وصلت الينا عن سفارة القاضى . وقد أورد بعضها بروايات اخرى الاستاذ السيد صفير فى مقدمة كتاب « اعجاز القرآن » للباقلانى ، لكنه لم يذكر مصادر الأخبار التى أخذ عنها . ويبقى أمر هام هو أننا لم نجد أى نصّ فى مصادرنا عن جواب



الرسالة التي أوفد القاضي بها .

وقد تأخرت وفاة القاضي الى سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٣ م . وذكروا انه كانت له جنازة حافلة حضرها شيخ الحنابلة يومئذ ، وأمر أصحابه أن ينادى بين يدي جنازته :

هذا ناصر السنة والدين ،

هذا امام المسلمين ،

هذا الذي كان يذبّ عن الشريعة السنة المخالفين ،

هذا الذي صنف سبعين الف ورقة ردّا على الملحدين (٢٣) .

## مراجع

- (١) تاريخ بغداد ، ٥ - ٣٩٧ -
- (٢) المصدر السابق
- (٣) الزمخشري ، ربيع الابرار ، ( الاعلام ٥ - ٣٦٤ ) .
- (٤) انظر اخبار هذه المجالس عند السكوني في كتابه « عيون المناظرات » : المناظرة الثامنة والمنة ، والتاسعة والمنة ، ص ٢٣٦ - ٢٤٤ -
- (٥) عيون المناظرات ، ص ٢٥٣ -
- (٦) عن تاريخ مجييع عضد الدولة الى بغداد انظر ابن كثير ، البداية ( ١ - ٢٨٩ )
- (٧) اسد رستم ، الروم ٢ - ٤٩ -
- (٨) الكامل لأبن الأثير ، ٧ - ١١١ ( المنيرية ) .
- (٩) الروم ٢ - ٤٩ وانظر : BREHIER , VIE ET MORT DE BYZANCE, p. 214
- (١٠) يفهم مما ذكره السكوني أن الأزدي ابا عبدالله كان تلميذ القاضي ابي بكر ، وانه ألف كتابا في مناقبه ( عيون المناظرات ، الفقرة ٣٢٩ ، ص ٢٣٦ ) .
- (١١) عيون المناظرات ، ٢٤٦ -
- (١٢) التكفير عند النصارى هو تقبيل الأرض بين يدي الملك .
- (١٣) تاريخ بغداد ٥ - ٣٧٩ - ٣٨٠
- (١٤) تبين كذب المفترى ، ص ٢١٨
- (١٥) الكامل لأبن الأثير ، حوادث سنة ٣٧١ -
- (١٦) عيون المناظرات ص ٢٤٦ - ٢٤٧

- (١٧) عيون المناظرات ٢٤٧ - ٢٤٨ -
- (١٨) تبين كذب المفترى ٢١٨ - ٢١٩ ، وجاء في نفع الطيب ( ٥ - ٢٩٢ ، عباس ) : وسأل القاضي هذا البطرك عن اهله وولده . فأنكر ذلك النصارى . فقال : تبرئون هذا مما تثبتونه لربكم ؟ سؤاة لهذا الرأي . فانكسروا .
- (١٩) نفع الطيب ٧ - ٢٢٥ ( ط . محى الدين )
- (٢٠) المصدر السابق ٥ - ٢٩١ - ٢٩٢ ( ط . عباس ) .
- (٢١) البداية والنهاية ١١ - ٣٥٠ -
- (٢٢) البداية ١١ - ٣٥٠ ، وورد هذا الخبر في تبين كذب المفترى ص ٢١٩ باختلاف في اللفظ ونصه : وأراد ملك الروم احراج القاضي وتوبيخه فقال له : اخبرني عن قصة عائشة ( يعني حديث الافك ) زوج نبيكم وما قيل فيها . فقال القاضي : اثنتان قيل فيهما ما قيل . زوج نبيتا ، ومريم بنت عمران . فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها . وكلّ قد برأها الله مما رميت به . . فانقطع الطاغية ولم يجر جوابا .
- (٢٣) تبين كذب المفترى ٢٢١ -

